

٣ - الشريف الأدريسى

بضع أقدام وأصح خريطة جغرافية للعرب القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضي

عضو هيئة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

تمة

١٣ - الأستاذ كونراد ميللر يفتي عناية خاصة بدراسة خريطة

الأدريسى وطبعها طبعة ملونة لأول مرة .

لم تحف قيمة هذه الخريطة العلمية والفنية على علماء الجغرافيا المستشرقين ، فالكثير منهم قد اشتغل بدراساتها في مختلف العصور ، ولكنهم شغلوا أنفسهم بنواحي خاصة منها ، ولم يجز واحد منهم بحثا شاملا مستقصيا مع اعترافهم جميعا بمنزلتها وتقديرهم لها . وما زالوا على طريقتهم هذه ولم يخرجوا عنها الى أن أتى الأستاذ

كونراد ميللر فأجرى عن هذه الخريطة البحوث المستفيضة وكتب عنها الفصول الطوال التي استغرقت أعدادا كاملة من مجموعته العربية (Mappe Arabackae) تلك المجموعة التي ضمنها أبحاثه في الجغرافية العربية ، ثم توج هذا العمل الجليل الذي نشكره عليه ونقدره له بطبع الخريطة سنة ١٩٢٨ لأول مرة طبعة ملونة . أبرزها في تلك الحلة الفاخرة والتناسية الأجزاء ، فدل على المدن بدوائر ملونة باللون الذهب ، ورمم الأنهار والبحيرات بلون أخضر فاتح ، والجبال بالوان مختلفة أحمر وأصفر وبفسجي إلى جانب بعضها ، كل هذا فوق أرضية فاتحة اللون تدع نفسها متميزة بوضوح عن لون البحار المدلول عليه باللون الأزرق السماوي المموج بخطوط رفيعة بيضاء ،

كما أنها تساعد على تحديد المسالك بعضها عن بعض بسهولة . ولقد كتب اسماءها بحروف لاتينية مميزة الأقاليم السبعة بخطوط رفيعة حمراء وجعل طولها مترين وارتفاعها متراً تقريباً . وبهذا تكون مساحتها ٢ مساحتها الأصلية التي قدمنا أنها كانت بطول ثلاثة أمتار ونصف متر ، وارتفاع متر ونصف متر تقريباً . هذا وقد يظن أن المساحة الأصلية كانت كبيرة بشكل زائد على اللزوم ، ولكن سوف يتلانى هذا الظن إذا علمنا أنها تتضمن من أسماء المدن فقط التي كانت مأهولة بالمعمران في ذلك العصر ٢٠٦٤ أسماء : (٣٦٥)

سنة ١٩٢٩ : ١٠٠٠ مريض ، سنة ١٩٣٠ : ١٦٣٥٤ مريضاً ، سنة ١٩٣١ : ١٠١٥٥ مريضاً ، سنة ١٩٣٢ : ١٢٠٩٢ مريضاً ، سنة ١٩٣٣ : ٧٦٧٠ مريضاً ، وكان عدد المرضى في شهور سنة ١٩٣٤ كالآتي .

يناير ٣٦٤ ، فبراير ٣٠٤ ، مارس ٤١٦ ، أبريل ٦٠٢ ،

مايو ٦٠٤ ، يونيو ٧٢٥ ، يوليو ٨٨٣

والذي يتبع هذا الأحصاء يرى تناقصاً في العدد في سنتي ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ويرجع السر في ذلك الى اقبال الحدود التماسوية الألمانية ، فقد قررت حكومة ألمانيا في يونيو سنة ١٩٣٣ على كل ألماني يرغب اجتياز الحدود التماسوية أن يدفع ألف مارك ، أي نحو ٧٥ جنياً ، فكان هذا سبباً في صد تيار الألمان الذي كان يتدفق قبل ذلك الى جازباخ ، ويكفي للدلالة على ذلك أن تعلم أن عدد الأجانب الذين هبطوا تلك القرية أخذ في التناقص من ٧٤ ٪ من جميع المرضى في سنة ١٩٢٩ الى ٥٥ ٪ في سنة ١٩٣٣ الى ٤٧ ٪ فقط في شهور سنة ١٩٣٤ .

أما تسابلايس ومصححه وطريقته في العلاج فقد أثار تفضية عظيمة في الجرائد الأوربية عامة والتمساوية والألمانية خاصة بين سنتي ١٩٢٩ ، ١٩٣١ ، وقد اطلعت على بعض المقالات التي نشرت في الجرائد الإنجليزية تحت عناوين مختلفة ، منها مقالة في «الدبلي ميل» بتاريخ ١٧/١٢/١٩٣٠ تحت عنوان «عمليات بالآلة الكهربائية» أشرت فيها استخدام الكهرباء بدل الشرط في العمليات الجراحية ، ومقالة أخرى طويلة في Literary Digest تحت عنوان «معجزات التماسوي صاحب العصي البحرية» وغيرها مما لا يتسع المقام لتفصيله . وسنأتي فيما بعد على طرف من أخبار انتصاره على أساتذة الطب في النمسا وألمانيا ، كما سنذكر شيئاً عن الطرق التي يستخدمها في العلاج والأمراض التي يعالجها . .

عبد الحميد فهمي مطر

ضحى الاسلام

وهو الكتاب التالي لفتح الاسلام

للمؤلف احمد أمين

ثمنه ٢٠ قرشاً

الدنيا لبطليموس التي تزيد على خريطة الأدرسي بألف سنة في القدم ، ولكنها ليست خريطة للدنيا بالمعنى الذي نعرفه ولا على مذهب خريطة الأدرسي بين الممالك ومواقعها إلى آخر ذلك ، وإنما هي خريطة للدنيا بمعنى أنها تغطي نظرة عامة فقط عن الدنيا القديمة وتبلغ مساحتها ٣٥ سنتيمتراً في ٥٢ سنتيمتراً . هذه الصورة التي أعطاها خريطة بطليموس ظلت معتبرة في بلاد الشرق والغرب إلى آخر العصر المتوسط . ولقد أخذ الأدرسي حدودها واستعان بها عند وضع خريطته ، ولكن من حسن الحظ كما عبر الأستاذ ميلر أن الأدرسي قطع النظر بالكلية عما احتوته خريطة بطليموس بعد الصورة والتحديدات العامة تنفيذاً لأمر رجار الثاني ، نقول من حسن الحظ لأن الأسماء التي ذكرها بطليموس في خريطته على كثرتها غير مطابقة للواقع بأكثر من ١٪ مع التسامح في هذه النسبة ، وكذلك درجات العرض والطول المثبتة في خريطة بطليموس تختلف عن الحقيقة بمئات من الأميال ، لهذا كان من الحكمة والسداد قطع النظر عما أثبت في تلك الخريطة بالكلية ، وكذلك فعل الأدرسي ووصل بمجهوده المستقل إلى أن يعطينا صورة صحيحة مطابقة للمصر الذي عاش فيه بما لا ينتظر خيراً منه ، الأمر الذي جعل لتقسيمات الممالك في الخريطة الأدرسية وللتقسيمات السياسية على الإطلاق قيمة علمية فائقة . نعم أظهر بطليموس مقدرة العالم الفلكي عند وضعه لخريطته في الوقت الذي أثبت فيه درجات العرض والطول بناء على حساباته العلمية البنية على القواعد بمقدار لم يصل إليه الأدرسي ، ولكن هذا لا يغيث شيئاً بجانب عدم التحري للحقيقة . وعند الموازنة بين خريطته وبين خريطة الأدرسي نجد أن بطليموس أثبت خطوط العرض والطول مما ولكنها تختلف عن الواقع بشكل غير مقبول . أما الأدرسي فإنه أثبت درجات العرض فقط ولكن بعد قياسات صحيحة ، فهي مطابقة للحقيقة بمقدار يدعو القدر للخريطة الأدرسية علمياً إلى أن ينظر إليها بين الأكباز والاجلال . وأما خطوط الطول فقد ترك إبتائها الأدرسي عن قصد ، إذ تبين له أن مقادير القاييس التي وصلت إليه غير صحيحة ، ولأنه لم يتيسر له بعد هذا إجراء قياسات أرضية لبيان درجات الطول وقياس الكرة السهوية ، وإن كان في الاستطاعة فإنه لا يبطئ نتيجة مقطوعاً بها .

هناك خريطتان أخريان

بأفريقيا (٧٤٠) بأوروبا (٩٥٩) بآسيا ، ويوجد بين هذه الأسماء كل أسماء المدن الشهيرة المهمة في ذلك الوقت .

قبل هذه الطبعة لم تكن الخريطة موجوده بشكل تام منسبكة الأجزاء بعد فقدان الأصل للخريطة الحائطية ، وإنما كانت موجودة في قطع متفرقة داخل كتاب زهرة المشتاق أو مستقلة بذاتها . ومجموع هذه القطع الموجودة إلى الآن منها يبلغ ٢٥٥ قطعة كما ذكر الأستاذ ميلر ، توجد بمكتب باريس وأكسفورد واستانبول وليننجراد والقاهرة ؛ وكانت هذه القطع من الأصل الذي طبع عنه الأستاذ ميلر تلك الطبعة التي بين أيدينا .

وهناك خريطة أخرى تدعى الخريطة الأدرسية الصغيرة طبعها الأستاذ ميلر كذلك في مجموعته ، وهي ليست لصاحبنا الأدرسي وإنما هي لابنه محمد وضعها سنة ١١٩٢ ، واسمها روض الفرج . ولقد وجدها بعض الباحثين كذلك في استانبول في ٧٣٣ قطعة ، وإذا وازنا بينها وبين خريطة والده فإنا نجد قد أخذها صورة طبق الأصل عنها بشيء يسير من التغيير ، ومع هذا فقد فاته عناية والده في الرسم .

١٤ - خريطة الشريف الأدرسي أقدم خريطة عالمية يعرفها التاريخ . موازات بينها وبين بعضه الخرائط وباريه مميزاتها بقى أن نذكر مع الفخر والاعجاب أن الخريطة الأدرسية أقدم خريطة عالية صحيحة كبيرة مفصلة وموضوعة بناية الضبط والاتقان والوضوح عرفها التاريخ إلى الآن . نعم لقد وصل إلى أيدي علماء الجغرافيا خريطة من عهد قيصرية الروم لها من العمر ضعف ما للخريطة الأدرسية وهي خريطة (بوينجر) التي وضعت في عام ٣٦٥ بعد الميلاد ، ولكنها ليست خريطة عالية للدنيا القديمة كخريطة الأدرسي ، وإنما هي خريطة لبيان طرق المواصلات فقط ، فضاءً عن أن المدن والمحطات التي ذكرتها أصبحت كلها ألقاباً لا يعرف لها أثر ، فالناظر إلى هذه الخريطة إنما يستطيع أن يتصور موضعها بالتقريب . وأما خريطة الأدرسي فهي فوق كونها عالية تمثل الدنيا القديمة ، وبالرغم من أنها تبلغ من العمر نحو ثمانية عشر سنة فكل المواضع التي ذكرتها يستطيع الباحث أن يثر عليها ويتثبت منها إلى الآن ، وما زال أغلبها يعرف بنفس الأسماء التي ذكرها الأدرسي إلى يومنا هذا . نحن لم نرث من العصر القديم خرائط جغرافية عالية وإن كان قدماء اليونان قد وضعوا خرائط من هذا النوع مبنية على طريقة فلكية متقنة ، وأشهرها خريطة

(١) خريطة Ebstorf نسبة للدير الذي وجدت فيه بمدينة هانوفر من أعمال ألمانيا .
(٢) خريطة Hereford التي وجدت باحدى كنائس هرفورد بالمجلترا .

وهاتان الخريطتان بالرغم من أنهما وضعتا بعد الخريطة الأدرسية بمائة سنة فلم تكونا عملاً علمياً ، وإنما كانتا عبارة عن تخطيطات زخرفية كما عبر الأستاذ ميللر ، تمتلان شيئاً من المصور السابقة لمصرها ، غير محتويتين إلا على شيء يسير من الجغرافية المعاصرة لها .

لعل القارئ يتساءل الآن عن مقياس الرسم للخريطة الأدرسية ، وهنا أقول إن مقياس الرسم بالمعنى الحديث الذى نعرفه والذى بمساعدته يستطيع الانسان أن يعرف مساحة جهة من الجهات بقياس مساحتها فوق الخريطة ، مقياس الرسم بهذا المعنى لا نجد في خريطة الأدرسي ، وهو طبعاً لم يوجد في جميع الخرائط القديمة ، وإنما وجد بعد وضع خريطتنا عمثات الستين . على أن الأدرسي قد أشار الى طريق الوصول الى معرفة مثل هذا المقياس الحديث . الأدرسي ذكر درجات العرض وقدر الدرجة بخمسة وعشرين فرسخاً ، والفرسخ بثلاثة أميال ، وعليه فالدرجة ٧٥ ميلاً ، ولكن الذى لم يذكر قدره الأدرسي هو الميل ، فإن قدرنا الميل بما كان معروفاً عند الروم وهو كيلو متر ونصف تكون الدرجة مقدرة عنده بـ ١١٢,٥ كيلو متر ، وبهذا يكون الأدرسي أعطانا مقياس الرسم لخريطته بشكل واضح .

في الختام أريد أن أذكر لحضرات القراء بعض الميزات التى تزيد في قيمة الخريطة الأدرسية ، وقيمة شرحها زهرة الشناق :
(١) تجنب الأدرسي ذكر الخرافات التى كانت شائعة في العصر المتوسط ، والتي تورط في ذكرها غيره من المؤلفين . ولقد كان من حنكته أنه إذا ذكر شيئاً خارجاً عن حدود المادة نسبة الى ناقله ، ثم أعقبه بكلمة احتياط كقوله : والقادر على كل شيء ، أعلم بما في هذا من الحقيقة . ولم يرسم ما كان شائماً رسمه عند علماء الجغرافية مما يمثل الخرافات الخرافية ، وطبعاً كان لعالم الاسلام الفضل الأكبر في هذا .

(٢) انفردت خريطة الأدرسي بأنما هي الخريطة الوحيدة التى تعطينا صورة صحيحة عن البلاد الواقعة حول البحر القزويني وصحراء المعجم في مدة من الزمن تبلغ نحو قرن ، هذه اللة التى

لولا خريطة الأدرسي لظلت حلقة مفقودة في تاريخ هذه البلاد .
(٣) إن خريطة الأدرسي وحدها هي التى مثلت لنا دولة الاسلام الغربية وهى في عصرها الذهبي ، تلك الدولة التى كان حظها حظ المائدة الفضية التى علم خبرها والتي قضى عليها في وقت وجيز على يد التتار والغول . فلما لم تصل اليه يد جنكيز خان بالتدمير من المدن الغربية وحضارتها الى عام ١٢١٩ ميلادية صعقته يد هولاء كرترى يوم ضرب المواسم الاسلامية ، وترك جنوده يمشون في بغداد فساداً في فبراير سنة ١٢٥٨ رثيمة أيام كاملة ، قتلوا فيها أهلها ، وخرّبوا عاصرها ، وحرقوا كتبها أو أغرقوها . ومن هذا الوقت تغيرت المواسم ، وتبدلت الأسماء ، وخلفت الدولة العربية دولة الغول والآراك ، وأخذت الخرائط التى وضعت بعد ذلك وجهاً آخر جديداً . فالخريطة الأدرسية إذن هي آخر تمثال لدولة العرب النابرة يلهمنا العظة ومحدثنا عن فتوحهم وعن مجدهم ونفخارهم بأنصح عبارة وأجلى بيان .

واننى في الختام أدع الحكم على قيمة هذا العمل العلمى الكبير ، وعلى مجهودات الأدرسي ورجار المشكورة لرجل خبير درس الخريطة وشرحها « زهرة الشناق » دراسة وافية ، لرجل لم يجر في عروقه الدم العربى ، ولا مجال لانهايه بالتحيز في حكمه ، ذلك هو الأستاذ « كونراد ميللر » لاذ يقول في آخر بحث أجراه لشرح الخريطة ما معناه : « إن رجار الثانى والأدرسي بوضعها لهنه الخريطة قد وضعا أم حجر أساسى في تاريخ انتشار العلم الانسانى . » واليك عبارته بالنص الألماني :

"Sicher ist, dass König Roger II., und der Scherif Idrisi mit dieser Karte ein Werk geschaffen haben, welches eine der wichtigsten Marksteine in der Geschichte der Ausbreitung des menschlichen Wissens darstellt."

أما كلمتى أنا فاقى أوجهها الى ورتة الأمة العربية ، وأخص شباب مصر الناهض وأبناءها البررة العاملين ، أوجهها الى هؤلاء جميعاً بعد أن نشرت بين أيدي القراء صحيفة ناصعة من صحائف أسلافنا الامجاد ، وبعد أن عرضت عليهم بعض ما يجملنا نتميز بتاريخنا ، ونفخر بماضينا ، وأناشد هذا الشباب المصرى ليجد في العمل كل في ناحيته راجياً أن نوفق في مسعانا ، ونربط حاضرنا بماضينا لنصل بوطننا العزيز بمشيئة الله وعونه الى مكانه الذى أخذناه فوق ذروة المجد ، وعلى قمة العلياء تحت قيادة ملكنا المحبوب قائد النهضة وحامل لوائها في مصر والشرق .

محمد عبد الله ماضى